**19**

**هناك نمط آخر من الشعر المقاوم يمثله الشعر الفلسطيني من خلال أبرز رموزه: درويش والقاسم وزيّاد ودحبور والمناصرة وشعر الجنوب اللبناني على العموم ويتجلّى بمعنى الالتحام بالأرض وتمجيد العناصر. هنا شعر المقاومة هو شعر التحام دموي بالمكان.**

**يقول شاعر جنوبي قتل خلال الحرب الأهلية من حوالي ربع قرن، هو موسى شعيب:**

**"هنا باقون كالأَزَلِ**

**نشُدُّ جذورنا بجذورنا الأُوَلِ**

**نعانق شوكَ هذي الأرض بالمُقَلِ**

**ألم تُخلق سوى الأفواه للقُبَلِ؟**

**هنا باقون لن نَبَرْحْ**

**وإنْ يُهدَمْ لنا بيتٌ، وإنْ نُقتَلْ، وإنْ نُذْبَحْ**

**فهذي الريح موّال لنا يصدحْ**

**وهذا الحقل أطفال لنا تمرحْ**

**هنا باقون مثل الصخرِ لن نبرحْ"**

**في هذا النصّ، وفي ما يليه، دعوة للإقامة في المكان، وهو الجنوب اللبناني، وهي إقامة ضنك، ولكنها طيّبة كالمنيّة عند الذلّ، التي وصفها جدنا المتنبي بقوله: "إنّ المنيّة عند الذُلِّ قِنديدُ" أي عسل.**

**وفي الإقامة، وَصْل للجذور القريبةِ في المكان، بالجذور البعيدة، وما يشبهُ الوصايا المقدّسة بالحفاظ على مطارح الآباء والأجداد، وعلى آثارهم وجذورهم وقبورهم وبقايا عظامهم.**

**والمعنى هذا، تمارسه جميع الشعوب والأقوام، وورد في تواريخ وميثولوجيات الحضارات المبكرة والقريبة... بل ثمّة ما هو أبعد من ذلك... ثمّة سحرٌ ما، أو لعنة من اللعنات، ستلحق بنا إذا غادرنا المكان. يقول الشاعر إننا إذا رحلنا: "ستلعننا كروم التين والصُبّار والعنبِ".**

**وهذه الكروم، من خلال سِماتها، والأماكن التي تتكاثر فيها، جنوبيّة على**

**20**

**الخصوص، وشاميّة على الإجمال، وليست كروم التين والزيتون في فلسطين التي ورد ذكرها في القرآن الكريم "والتين والزيتون وطورِ سينين، وهذا البلد الأمين" سوى جزء تاريخي ومقدّس منها... فثمة إذن، حراسةٌ للمكان، قريبة من السحر أو القداسة أو بالمعنى السياسي الحديث، ثمّة تعلّقٌ بالوطن والدفاع عنه حتى الموت، فليس سوانا أَحَدٌ ليُطيّبَ خاطر الغسق، وليمسح الغبار عن جبين الحجارة، والعرَقَ المتحدّر عن زنود الحطّابين... وليس سوانا أحد ليستقبل أول النهار في القرى الجنوبيّة، وليودعه حين يأتي المساء... وهذا ليس شعر إقامة فحسب، بل هو شعر مقاومة وصمود.**

**ومثلُهُ، قولُنا في قصيدة بعنوان "دخان القرى":**

**"هو القلبُ أم حفنةٌ من دخان القرى**

**قال لي صاحبي:**

**نشأنا معاً**

**وضحكنا معاً**

**وشربنا معاً وَحْلَ أقدامنا**

**فهل أنت مثلي غداً ميّتٌ في المدينة؟**

**قلتُ: هذا اتجاهي**

**من النهر حتى احتراقاتِهِ في الخليج**

**جنوباً**

**جنوباً**

**جنوباً**

**وكل الجهات التي حددتني غَدَتْ واحدة**

**قال لي:**

**أنت لا تعرف الأرض والآخرين**

**قلتُ: أمي نهتني عن الموت إلا على صدرها**

**قالَ: خُذْ رقم قبري وغابْ**

**ولما التقينا**

**بكينا معاً فوق صدرِ الترابْ"**

**21**

**من البيّن أيضاً، أنّ هذا الشعر بدوره، هو شعر إقامة في المكان... تمَّ خلال عملية اندراج جسدي أو تجسّدي incarnation, وتبادل أدوار، بين عناصر التراب وجوارح الشاعر، والتحام أخير ونهائي بين الإنسان والأرض يصل لحدود الإتحاد الصوفي... وهو شعر مقاومة أيضاً.**

**ثمّة إذنْ، عناصر أوّلية تصل لحد الفطرة، تجعل الإنسانَ متعلّقاً بمكانه، بمنزله، بأهله وجيرانه، بفتاة أحبها وهو صغير من خلال هذه النافذة، أو بترْبٍ لاعبه على ذاك الملعب... بصخرة مقيمة هنا، أو أغصان دالية معلّقة هناك... وقد يجد الإنسان مثلها أو أكثر منها في أماكن أخرى من العالم، إلاّ أنّ امتزاجها بسيرة حياته، امتزاجاً حسيّاً جسدياً، وامتزاجاً نفسياً ووجدانياً، تجعل منها جواهر في مطلق الإحساس بها، ففي هذه الأمكنة ولدت الحياة لأول مرّة، وعليها دَرَج الإنسانُ في الصبا والشباب، ومن مجملها يتكوّن إحساس بالألفة والسكينة، هو جزء من الإحساس بالوطن، الذي قال فيه ابن الرومي:**

**"ولي وَطَنٌ آليت ألاّ أبيعه وألاّ أرى غيري له الدهر مالكا"**

**إلى أن يقول:**

**"وحبَّبَ أوطان الرجال إليهمُ مآربُ قَضّاها الشبابُ هنالكا"**

**من أجل هذا، يحبّ الإنسان أن يعيش في وطنه، ولكنه أيضاً يجب أن يموت دفاعاً عن وطنه.**

**تفاعل العناصر**

**نقول: إنّ هذه العناصر الأولية للمكان والأهل، الواصلة لحدّ الفطرة والبداهة، ينفعل بها كل إنسان على طريقته، ويدافع عنها على طريقته... ثمة على سبيل المثال، في قرية "عيناتا" من الجنوب اللبناني، ثلاثة قبور لا تزال قائمةً حتى اليوم، وهي لأبناء فلاّح جنوبي من القرية، قُتلوا خلال الاجتياح الإسرائيلي للجنوب اللبناني في العام 2891. سأَلَتْ مراسلةٌ أجنبية والدهم الشيخ السؤال التالي:**

**- ماذا ستفعل الآن بعد موت أولادك الثلاثة؟ هل سترحل؟**

**فأجابها: اسمعي: سأبقى... (وأشار إلى قبور أبنائه الثلاثة) وقال: نحن هنا**

**22**

**ليس لنا سكن في أي مكان آخر إلا فوق هذا التراب بالذات أو تحته.**

**والشعراء، غالباً ما يُدخلون هذه العناصر الأوّلية للمكان، والإقامة، والسيرة، في دواخلهم السحريّة، أو يطلقونها، كالحمائم، في مخيّلاتهم العجيبة... فيبتكرون منازل للمنازل، كما يقول المتنبيّ:**

**"لك يا منازلُ في القلوب منازلُ أقفرتِ أنتِ وهُنَّ منكِ أواهلُ"**

**أو يتداخلون معها تداخلاً عجيباً ومفاجئاً، وإبداعيّاً، فهي عناصر تظهر من الخارج كأنها عناصر حيادية، ولكنها، في القصيدة، تغدو عناصر أخرى ممزوجة بنبض الشاعر، ومغسولة بمياهه السحرية، ومولودة ولادة جديدة وخاصة، من خلال كلماته.**

**على هذا الأساس سنجد شاعراً جنوبياً هو حسن خليل عبد اللَّه، يقول في قصيدة "الدردارة" (المؤرخة العام 1891)، واصفاً طَرَفاً من طفولته التي قضاها قريباً من نبع الدردارة في "الخيام": (وهو شعر أبيض لإقامة بيضاء في المكان وليس لإقامة دامية).**

**"أذكرُ من حديد الصيف فَخَّ حسن خليلَ وبأسَه المائيّ**

**أنا هناكَ في العصفور**

**كيف تكون في العصفور؟".**

**فانظر: يمضي الولد الجنوبي لزمانه وأحواله، لكنه يبقى مقيماً في العصفور، فلو أصابَ صيّاد ما العصفور ذاك لأصاب "حسن خليل" بالذات. وأكثر من ذلك، فإنّ العناصر السحريّة البدائية للمكان، يرتّبها هذا الشاعر ترتيباً مدهشاً قريباً من السحريّة الرعوية، التي تنتشر من خلالها الأرواح في الزوايا والحشرات وفي الأشجار والماشية... فيقول:**

**"يعيش يعيش ديكُ الماءِ**

**عاشَ الديكُ**

**عاشَ الديكُ**

**عاشَ الأصفرُ العصفورُ**

**بين الثور والمجرى**

**وصفراءِ النساءِ**

**وصُفرة الدينور..."**

**23**

**فأية قدرة توليدية خُصّ بها هذا الشاعر، لكي يخترق بالكلمات، واللَعِبِ الطفولي، عناصر الطبيعة الأولية، وليفاجئ الحياة بحياة أخرى في القصيدة (لعلّها أجمل) ويفاجئ المكان (بمكان آخر لعلّه أطرف وأجمل...) وكل ذلك مردّه للروح المبدع للشاعر... ذاك الروح الذي قال فيه غارسيا لوركا: "الروح المبدع هو القوّة الخفيّة التي قال عنها "باغانيني" بأنه يُحْسَبُ بها كل إنسان ولم يعرفها فيلسوف. وتجلّي الروح المبدع يستلزم تغييراً مشعّاً للأشكال والطرز القديمة ويهب إحساساً بالنضرة، جديداً كل الجدّة، كوردة تخلق حديثاً... كمعجزة... ويولّد في النهاية ما يشبه الحماسة الدينية... صرخة تواصل مع اللَّه من خلال الحواس"...**